

# الخطاب الإسلامي المعاصر

انطلاقته – سماته - اشتغالاته

محمد طاهر الحسيني

الطبعة الأولى  
٢٠١٥م - ١٤٣٦هـ

كل الحقوق  
محفوظة

 مركز ابن إدريس الحلي  
للتنمية الفقهية والثقافية

العراق - النجف الأشرف

009647800069293 - 009647708372813



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آل  
بيته الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين...

(الكرايس) عبارة عن خلاصات لعدد من المحاضرات  
التي ألقيتها على نخبة من الشباب المسلم المثقف في  
بغداد، ارتأيت أن أنشرها بغية تعميم الفائدة..

.. والله وراء القصد

محمد طاهر الحسيني

بغداد

٢٠١٥م - ١٤٣٦هـ



## الخطاب الإسلامي المعاصر

### التعريف:

في السؤال عن تعريف الخطاب الإسلامي المعاصر، يُتوقف عند تعريف الخطاب من حيث هو بعيداً عن وصفه الإسلامي أو غير الإسلامي، وبمعزل عن كونه معاصراً أو غير معاصر. مع ملاحظة أنّ هذا المصطلح حديث الولادة والنشأة. وجواباً عن تعريف الخطاب من حيث هو، فإنه: مجموعة الركائز والمميزات التي يعتمدها تيار ما، فكرياً كان أم سياسياً، اجتماعياً كان أم أدبياً، فنياً للتعبير عن ذاته والترويج له.

وباختصار شديد، يمكن القول: أن الخطاب هو أداة للتعبير عن الذات والترويج لها.

وإذا لوحظ وصف الإسلامي في الخطاب، فإنه سيكون بمثابة التعبير عن الإسلام، من حيث هو مجموعة معتقدات ومفاهيم وتعاليم وشرائع.

ومع ملاحظة وصف المعاصرة، فإننا سنكون أمام لحظة راهنة وزمن راهن، وعندئذٍ يمكن أن يقال إن المقصود بالخطاب الإسلامي المعاصر هو:

مجموع السمات الخاصة والمستجدة التي تميّز أشكال التعبير الراهنة عن الإسلام والدعوة إليه، وصياغة مفاهيمه والدفاع عن مبادئه وتوجهاته.

فالخطاب الإسلامي المعاصر، هو ذاته الخطاب الإسلامي ما قبل المعاصر، من حيث المصدر الفكري الذي ينتمي إليه ويعبر عنه، ولكنه خطابٌ متجددٌ، يأخذ بالاعتبار التحديات الجديدة، ويتسلّح بالمنجز الفكري والعلمي الديني وغير الديني، ولذلك فإنه لا يتجمد عند التراث ولا يتوقف عنده ومعه.

ولا يقتصر الخطاب - من حيث المفهوم - عند اللغة والمنهج، فإنه يتجاوز ذلك إلى المحتوى والمضمون وإلى النتيجة ذاتها، وتجاوز ما هو مألوف وما هو قائم. مما لا يُعدُّ من أصول الفكر الإسلامي وقواعده.

وللتوضيح يمكن الإشارة إلى لغة مفكري الإسلام وعلمائه ومنهجهم في عرض المسائل وبحث القضايا من جهة، وتناول القضايا والمسائل نفسها.

فمثلاً، كان دأبُ الفقهاء على كتابة متونهم (كتبهم) الفقهية بلغةٍ تتناسب واللغة السائدة في تلك الأزمنة. كما أنهم يعرضون المسائل والقضايا الفقهية وفقاً للمنهج السائد بين الفقهاء، وربما جرى عليه تعديل بين الفينة والأخرى.

كما أنهم يتعرضون لمسائل كانت محلاً للابتلاء وموضوعاً للبحث بينهم، مما يتعارف ويشيع في حياة الناس، فيعرضون لأحكام الآبار والدلاء والدواب والعقود كما هي متعارفة وشائعة.

ولكن - كلما تقادمت السنون - خصوصاً بعد قرون - فإن اللغة تتبدل وتتغير، ويستشعب الناس مفردات لغوية كانت رائجة لم تكن لها مدلولات سلبية، كما أن القضايا المعروضة والمسائل المتداولة تتبدل وتتغير مع تغير أحوال الناس المدنية.

فمثلاً كان الفقه الاقتصادي حاضراً في مسائل الفقه على نحو التثنت، فيدرس الفقيه: الاحتكار والغش والربا والحيازة وغير ذلك من القضايا والمسائل. ولكن منذ فترة ليست بعيدة بدأ بعض الفقهاء يعرضون الرؤية الإسلامية في خصوص هذه المسائل بلغة جديدة ومنهج حديث. ولعلّ الإشارة إلى كتاب (اقتصادنا) يكفي للتدليل على ذلك. فقد عرض الشهيد الصدر مسائل فقهية كان الفقهاء يعرضون لها بطريقة متناثرة لا يجمعها جامع، فيما عرضها الشهيد الصدر برؤية جامعة، وهي تعبير عما نسميه اليوم بالنظرية والنظام. وكذلك يبدو ذلك في كتابه (البنك اللاربوي في

الإسلام). إذ يلاحظ أن هذا العرض مرهون بأمرين: بالمحتوى والمضمون من جهة، ومرهون - أيضاً - بالمعطيات القائمة والمناخ السائد. ولذلك نجد في كتاب (البنك اللاربوي في الإسلام) حلولاً فقهية افترضها الشهيد الصدر علاجاً أخذ فيه الوضع السائد، وهو غلبة الاقتصاد الرأسمالي وهيمنة مؤسساته المالية والمصرفية على الحياة.

وإذا كانت الساحة العلمية تقتصر على المسائل التي تضح بها الحياة في تلك الأزمنة، فقد باتت الساحة العلمية اليوم تضحّ بمسائل من نوعٍ آخر. فقد أصبحنا نسمع بن الاستنساخ، زراعة الأعضاء، الموت الرحيم، أطفال الأنابيب، ثبوت الهلال وفقاً لمنجزات علم الفلك و... وهي استدعت أن تكون هذه المسائل على طاولة الفقهاء الجادين والمسؤولين.

وعلى أية حال، فإن ذلك كله فرض على الفقهاء - عموماً - تغيير لغتهم ومنهجهم، وهو ما نسميه بالخطاب الفقهي.

ومثل ذلك جرى في ما يتصل بالحقول المعرفية الأخرى، على المستوى العقيدي - الفلسفي، والتربوي، والتاريخي واللغوي و...

أخذ هذا الخطاب بالتشكّل على وقع المستجدات والمعطيات الجديدة السائدة في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي. سواء أكان منها الخارجي أم الداخلي، لتدفع باتجاه منهج جديد ولغة جديدة، كانت خياراً لعددٍ من المصلحين والزعماء المسلمين.

### - التحدي الخارجي (الحملة الاستعمارية):

وهو من أعظم المؤثرات التي استفزت العالم الإسلامي في العصر الحديث، وأسهمت في إعادة تشكّله، وبما صاحب هذه الحملات من تأثيرات سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية وقد أطلّ الخارج (الوافد) على العالم الإسلامي، ليس بثوبه

العسكري فحسب، بل أطلّ عليه بمجموع متغيرات وهي:

- التغيرات الكبيرة التي شهدتها الغرب، وعلى رأسها شيوع مبدأ الحرية، وتكريس هذا المبدأ في المجتمع الغربي على أوسع نطاق، وعلى ضوء رؤية وفلسفة جديدة.
- التغيرات الجذرية في المؤسسة السياسية وتجاوز الأزمة في بلاد الغرب، وبناء مؤسسات الدولة بعيداً عن شخصية الحاكم.
- التغيرات الهائلة على المستوى الاقتصادي، وانطلاق المشروع المالي والاقتصادي، والنهوض بالمشروع الاستثماري المالي على أوسع نطاق.

## - التحدي الداخلي:

لقد شهدت البلاد الإسلامية تراجعاً خطيراً على مستويات عديدة، سواء على المستوى السياسي والاقتصادي أم على المستوى الديني والثقافي.

■ كان أول مظهر من مظاهر هذا التراجع هو انهيار مؤسسات الأمة المسلمة وعجزها عن بناء مؤسسات جديدة.

لقد سقطت مؤسسة الحكم نهائياً، بعد أن كانت مجرد صورة لحكم الفرد على مدى طويل من الزمن. بل تمّ إحلال مؤسسات (بديلة) مستوردة على نسق حضاري آخر، حلّ محل مؤسساتنا القائمة، بما عجلّ من خلق حالة قلق نفسي واضطراب فكري وتذبذب حضاري بلغ غايته في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وهو (إحلال) لم يكتب له النجاح، فلا أبقى المجتمع على مؤسساته وأصلحها ولا هو نجح في المؤسسات الجديدة التي استُبدلت بها المؤسسات القديمة.

ولم يتوقف الحال عند مؤسسة الحكم، بل تعدى إلى المؤسسات الاجتماعية والدينية، وتغيرت الأحوال في المجتمع السليم.

■ ومع سقوط هذه المؤسسات: السياسية، الدينية التعليمية، الاجتماعية، أخذت تختفي القيم القديمة وبدأت تتسرب إلى المجتمع قيم أخرى جديدة، وبذلك دخل المجتمع المسلم في عالم الغربة والاستلاب.

■ وعلى المستوى الثقافي، كان الداء نفسه فقد عاش المجتمع على وقع الاجترار الثقافي، وعجزت النخب الثقافية على تنوعها عن إنجاز ما هو جديد، فبقي المنجز السائد والقائم عبارة عن صدى القديم ورجعه. وعلى سبيل المثال: هل يعقل أن يكف المفكر والفقير الإسلامي عن إنجاز رؤية فلسفية

وسياسية وفقهية للحكم؟! ويتوقف  
عند تراث الأقدمين؟! ليعيد إنتاج  
(الأحكام السلطانية) للماوردي  
و(السياسة الشرعية) لابن تيمية  
و(الأحكام السلطانية) لابن يعلى  
الحنبلي!؟

إن إعادة إنتاج هذا التراث، في هذا المجال وفي  
غيره من المجالات ينبي بوضع مزر لمستوى التراجع  
المعرفي في المجتمع وتآكل مؤسساته التعليمية.

## تيار التنوير الإسلامي:

ليس سرّاً أن نكشف عن هيمنة موقف التشدد في المجتمع المسلم تجاه التغيرات التي شهدتها العالم، وبدأت تدق أسوارنا الخارجية بقوة وعنف. إذ يرى الفقيه والمثقف أن الوافد الغازي حقيق بالواجهة ورفض بضاعته كلها، ودون ان يكون ثمة فرق بين جيدها وفاسدها، لأن ذلك كفيل بتحقيق حصانة كافية للأمة في مواجهته ودحره.

ولا يخفى - أيضاً - أن ثمة موقفاً انبطاحياً لعدد من النخب المتعلمة والمثقفة في المجتمع المسلم، دفعها إلى ذلك إيمانها بفضل هذا الوافد وقدرته على انتشار المسلمين من واقعهم المزري، فضلاً عن إيمانهم بعجز ثقافتنا وتراثنا عن النهوض بهذه المهمة. وقد ذاعت أسماء في هذا التيار من أمثال: سيد أحمد خان في الهند، ولطفي السيد وطه حسين في مصر، وسلامة موسى ولويس عوض وساطع الحصري في بلاد الشام.

وبين الموقفين ثالث، اختاره تيار عقلاني، تمثل في عدد من أبرز المصلحين الإسلاميين، يستند إلى الاعتزاز بالذات والهوية ويرتكز على موقف شرعي ومرجعية شرعية إسلامية من جهة أخرى، ويقدر حجم الضرر البالغ الذي تركه التحجّر وشيوع ظاهرة الانكفاء.

ويقوم هذا التيار على فلسفة جديدة توائم بين ما هو أصيل وبين ما هو جديد يتناقض معه، وبين ما هو ثابت، وبين ما هو مستحدث لا يتصادم معه.

ووجد هذا التيار نفسه أمام أهم إشكاليتين: الهوية، والحدثة، وكيف يمكن التوفيق بينهما؟  
فالهوية هي الخصائص والمميزات الاجتماعية والنفسية والتاريخية المتماثلة لكل جماعة، والتي تعتبر كياناً تنصهر فيه الجماعة.

وهذا الكيان هو: وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري، ومحتوى لهذا الضمير الجمعي في الآن

نفسه. بما يشمل من قيم وعادات ومقومات،  
تكيّف وعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة  
داخل نطاق الحفاظ على كيانها.

ولذلك اشتق هذا المفهوم - أي الهوية - من  
المعنى اللغوي للضمير هو، وإلى ما يكون به الشيء  
من حيث تشخصه وتحققه في ذاته وتميزه عن  
غيره، ولذلك يختصر بالتعبير عنه من حيث هو  
هو.

وإذا كنا أمام كيان ثابت وسرمدي كما يقول  
البعض فكيف يمكن التوفيق بينه وبين ما يعرف  
بتيار الحداثة، بما هو نزعة أو منهج فكري أو  
فلسفي..؟!.

قد يكون المفهوم - أي الحداثة - مرتبطاً  
بالتقدم التكنولوجي والتغيرات الهائلة التي شهدتها  
العالم، وقد ينفي البعض عن المفهوم كونه تياراً  
فلسفياً ومنهجاً فكرياً محدداً، أو موقفاً فكرياً  
موحداً من العالم، ولكن مع ذلك، لا يمكننا نزع

صفة التغير الفكري والثقافي والفلسفي عن مفهوم  
الحدائثة، وما يتركه هذا التغير على السياسة  
والاقتصاد والدين وعلم الاجتماع و...

ويبدو تيار الحدائثة اليوم أكثر من أي يوم مضى  
تياراً فلسفياً يؤسس لمنهج في الحياة يقضي بعدم  
الاعتراف بحالة الوصاية على الإنسان من أية قوة  
ويؤسس لفلسفة استقلال الإنسان بنفسه عن أي  
تأثير أو توجيه، وبذلك يتم تجاوز الدين ومنظومة  
الدين وقيمه، كونه القوة والجهة التي تفرض  
إرادتها على الإنسان وتحدّ من نزوعه نحو  
الاستقلال.

وبهذا المعنى، وجد تيار الإصلاح الإسلامي نفسه  
أمام معضلة التوفيق بين الحفاظ على الهوية وبين  
الانفتاح على التغيرات الهائلة التي حصلت في  
العالم، وخصوصاً على مستوى قبول تيار الحدائثة  
وما سبقه مما أُسْمِيَ بعصر التنوير.

وبشيء من التبسيط حاول تيار الإصلاح الإسلامي أن يبدد الشكوك تجاه الوافد الثقافي الجديد وذلك بتجريده من الأسس الفلسفية التي يستند إليها، ليستغل على موضوعات مشتركة ولكن بروح إسلامية ورؤى شرقية.

وهذا الموقف تجاوز تيار الإصلاح الإسلامي محنته في التنوير، لئلا يقع فريسة الخصوصية الأوروبية التي طبعت تيار التنوير في أوروبا من حيث انتهى إلى الحجر على الدين واتخاذ مسالك معادية له، وذلك مع هيمنة النزعة التي تمجد العقل واعتماده مرجعية حصرية لشؤون الفكر والعلم والدين بحيث تختفي المرجعيات الأخرى وتراجع لحساب العقل.

لقد تعجل بعض العلماء في الغرب في الإعلان عن الهيمنة المطلقة للعلم ومعطياته، وتورطوا في تأليهه، إلى درجة يعلن معها بعض فلاسفة أوروبا

(موت الله)، كما ورد على لسان الفيلسوف  
(نيتشه).

أما في الشرق الإسلامي فقد حاول تيار الإصلاح  
الإسلامي على العمل لحماية الهوية الإسلامية،  
والانفتاح على قضايا العصر، والمعضلات التي  
كانت تهم المسلمين ويتطلعون إلى وضع الحلول لها  
وبما لا يتعارض مع الحفاظ على الهوية الإسلامية.

ولذلك برزت موضوعات مهمة وضعت على  
الطاولة أمام الزعماء لتداولها والتفكير بها والعمل  
عليها وكان أبرزها:

- فكرة المواطنة والعلاقة بين المجتمع  
والدولة.
- فكرة الدساتير الحديثة والتنظيمات  
الإدارية.

- تجديد الفكر الديني وإشكالية العلاقة بين الديني والزميني.
- إصلاح التعليم الديني.
- الدين والعلم.
- حقوق المرأة ومشاركتها في الشؤون العامة.

## رواد الإصلاح الديني:

وفي صدد الاشتغال على الموضوعات الحرجة التي أشرنا إليها، وفي سبيل تجاوز محنة المجتمع العربي والإسلامي، برزت أسماء لامعة على مستوى الإصلاح، أسهمت أيما إسهام في العمل على تحقيق مشروع النهضة والثورة على الواقع الفاسد الذي تعيشه المجتمعات العربية والإسلامية، وعلى المستويات: الدينية، والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمعرفية..

وكان رواد هذا المشروع النهضوي التنويري:

■ الشيخ رفاعة الطهطاوي (ت ١٨٧٣ م):

أحد مشايخ الأزهر، ابتعث إلى فرنسا مرشداً في عهد محمد علي باشا، فرجع إلى مصر بمشروع تحديتي، استقاه من مشاهداته في فرنسا على المستوى الإداري والتنظيمي، فضلاً عن فكرة المواطنة، والعلاقة بين المجتمع والدولة.

■ الشيخ خير الدين التونسي (ت ١٨٩٠ م):

تولى الوزارة الكبرى في تونس في ظل الدولة العثمانية، وقد أنجز إصلاحات هامة في الإدارة والتعليم والصحة والاقتصاد، وقد أسس (المدرسة الصادقية) أول معهد تونسي لتدريس العلوم العصرية، كما أنشأ محجراً صحياً في وقت لم يكن يعرف فيه المجتمع العربي الإسلامي مثل هذه المؤسسات.

■ السيد جمال الدين الأفغاني (ت ١٨٩٧):

حكيم الشرق وموقف الشرق كما يوصف، أحد أبرز زعماء مشروع النهضة في المجتمع العربي الإسلامي، دعا إلى نهضة سياسية وإحداث تغيير في إدارة الحكم على نحو شوروي وتوسل إلى ذلك النقد السياسي، كما دعا إلى ما أسماها بالجامعة الإسلامية، ولتحقيق أهدافه في نجاح مشروع النهضة. سافر كثيراً واتصل بزعماء العالم في

فرنسا وروسيا وألمانيا وانجلترا واستانبول وإيران..  
وأصدر من فرنسا (العروة الوثقى) مع تلميذه  
وشريكه الشيخ محمد عبده.

■ الشيخ محمد عبده (ت ١٠٩٥ م):

شيخ الأزهر، كان عينه الخديوي عباس في  
مجلس إدارة الأزهر وأوكل إليه تقديم مشروع  
لإصلاح الأزهر، ثم تولى الإفتاء ومناصب أخرى في  
الأوقاف... وتأثر بأستاذه السيد جمال الدين وغادر  
مصر إلى فرنسا وبيروت. وشاركه إصدار مجلة  
(العروة الوثقى)، ومن أهم أعماله تفسير المنار  
الذي أكمله تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا.

■ الشيخ محمد رشيد رضا (ت ١٩٣٥ م):

وهو من المتأثرين بالسيد جمال الدين الأفغاني،  
والشيخ محمد عبده، وقد أصدر مجلة (المنار) التي  
إرتأى أن يجعلها نظيراً لمجلة (العروة الوثقى)، وقد

نشر فيها قسماً من تفسير أستاذه الشيخ محمد عبده الذي التقاه في لبنان، وكان يتطلع إلى اصلاح شؤون المسلمين ويتوق إلى الوحدة الإسلامية، ولكنه عاد عن المنهج الذي تأثر به من الشيخ محمد عبده.

■ الفيلسوف محمد إقبال (ت ١٩٣٨ م):

وهو أشهر فلاسفة الشرق الإسلامي، وكان أهم ما يتطلع إليه وعمل عليه هو تجديد الفكر الديني، وحمل هذا العنوان أحد أهم كتبه.

وقد برزت هذه الأسماء كعلامات فارقة في حراك المشروع التنويري الديني الإسلامي في المحيط الإسلامي العام، وتحديداً على المستوى أهل السنة وهناك أسماء أخرى برزت في المحيط الإسلامي الشيعي.

■ الشيخ محمد حسن النائيني (ت ١٩٣٦م):

وهو استاذ للجيل الفقهي السابق من امثال السيد الخوئي وغيره، فهو فقيه واصولي بارز، ومن أهم أدواره أنه نظر لموقف أستاذ الشيخ محمد كاظم الخراساني، الذي ناصر الحركة الدستورية (المشروطة)، فكتب رسالة بعنوان (تنبيه الامة وتنزيه الملة). ويذكر أن النائيني التقى جمال الدين الافغاني وله علاقة به منذ أيام اصفهان حيث الدراسة، إذ قدم الافغاني اليها في أيام ثورة التباك.

■ السيد محسن الأمين (ت ١٩٥٢م):

وهو أحد الفقهاء المعروفين وقد كان له - عدا الإسهام السياسي المناهض لحركة الاستعمار الفرنسي في سوريا - الدور البارز في اصلاح الشعائر الحسينية، وانشاء المؤسسات التعليمية الحديثة سواء للذكور أم الإناث.

■ الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ت ١٩٥٤م):

وهو أحد مراجع النجف المعروفين، وهو فقيه أديب وملكلم (من علم الكلام والفلسفة)، وقد خاض غمار السياسة، فكان له دور في الحركة الدستورية والجهاد في العراق، ودور آخر في حركة مايس (١٩٤١م).

وقد ترك لمساته وبصماته واضحة في حركة التأليف الادبي والقانوني والفقهي والعقائدي.

ومن أهم افكاره الدعوة إلى التفقه الواعي من خلال فهم النصوص الدينية فهما سليماً بعيداً عن الحرفية، فأجاز طلاق المرأة من المسلول، وشجع على بناء مؤسسات ذات نفع عام وعدم الاقتصار على بناء المساجد، ومنع من مظاهر مشينة كانت تجري في النجف، ودعا الى اصلاح المنبر الحسيني.

■ السيد هبة الدين الشهرستاني (ت ١٩٦٨ م):

وهو من أبرز المصلحين، وقد ركز جهوده على أمرين اثنين: الأول: محاولة التوفيق بين العقيدة الدينية وتحديد الأسلامية وبين معطيات العلم. ولذلك أصدر مجلته الشهيرة (العلم) عام ١٩١٠ م، والثاني: محاربة الظواهر المرضية المنسوبة للدين، ومن ذلك نقل الجنائز فأفتى بحرمة النقل الى المشاهد من بعيد، وبذل جهوده في اصلاح الشعائر الحسينية وحرم الاساليب المعروفة من تطبير ووزجيل.

هذا، فضلاً عن دوره في تأسيس المكتبات، و(مكتبة الجوادين) تدل على ذلك الجهد. وتأسيس المدارس والجمعيات، فيما بذل جهداً كبيراً في ارسال اول بعثة دراسية عراقية الى سوريا وأوربا إبان تسلمه وزارة المعارف في عهد الملك فيصل الاول، وقد استقال من الوزارة لجهة رفضه فكرة الانتداب، فتسلم مجلس التمييز الجعفري.

■ الشيخ محمد رضا المظفر (ت ١٩٦٤م):

وهو من ابرز الفقهاء المجددين ، ويُعدُّ رائد  
تجربة التحديث والتنظيم التعليمي، عبر ما سماه  
(منتدى النشر) و(كلية الفقه) لاحقاً.

ومعه زميله السيد محمد تقي الحكيم.

## حقبة التنظير الفكري:

في الوسط الشيعي وتحديدًا في مطلع القرن العشرين لم يعرف نشاط تنظيري واضح للمشروع الإسلامي عدا ما كتبه الشيخ محمد حسين النائيني (وقد سحب رسالته من التداول)، ولعل أول نشاط في هذا المجال يرجع إلى جهود أربعة من أبرز الفقهاء والمفكرين وهم:

في إيران: الشهيد مرتضى مطهري، وهنا لا بد من ذكر السيد محمد حسين الطباطبائي.

في العراق: الشهيد محمد باقر الصدر، والسيد محمد حسين فضل الله، والشيخ محمد مهدي شمس الدين، وأخذ الجهد التنظيري بعداً شمولياً شمل السياسي والديني والاجتماعي.

## سمات الخطاب الإسلامي المعاصر:

لقد اتسم الخطاب الإسلامي المعاصر، وخصوصاً في مراحلهِ الأولى، بعدد من السمات، وصفت بغير الحميدة، وربما كانت طبيعية في ظل ولادة جديدة وعسيرة لهذا الخطاب، فظهر معها الخطاب الإسلامي مثقلاً بالظروف والمعطيات التي أنتجته أو أحاطت بإنتاجه.

و قد سُجّلت عدة سمات على هذا الخطاب يمكن تلخيصها بالتالي :

١- إنه خطاب ذو طبيعة سجالية، ابتعد معها عن روح التعاون والثقة بالآخر لأنه وجد نفسه يتخندق في جبهة صراع عنيف مع الجانب الآخر، الذي وصف بالاستعماري - عموماً - الذي يستهدفه ويعمل على إلغاء ذاته وهويته الإسلامية أو الانتقاص منها.

وغالباً ما تفوّت الطبيعة السجالية لأي خطاب ثقافي فكري فرصة التواصل مع الخطاب الفكري

والثقافي الآخر، وتعمّق من الفجوة والهوة بين  
الرؤى الفكرية المختلفة.

٢- أنه خطاب وعظي ومثالي في آن واحد، فهو  
وعظي، لأنه يركز على جملة من الوصايا - وهي  
ضرورية - ومثالي لأنه يبالي في الصور النمطية  
المشرقة، دون أن يعي أن هذه الوصايا وهذه  
الصور النمطية لا تسهم وحدها في بناء مجتمع  
مستقر وآمن مزدهر. وعلى خلفية هذه السمة جاء  
الخطاب الإسلامي المعاصر وبالتحديد في مراحل  
الأولى عمومياً وضبابياً، دون أن ينفذ إلى التفاصيل  
الحياتية، ليكتفي باللوحات السريالية أحياناً  
والشعارات الإعلامية.

٣- أنه ذو سمة حذرة تجاه الفكر الآخر،  
وخصوصاً الفكر الغربي، وذلك لأنه يحمل بذور  
الريبة والشك تجاهه، وهو ما باعد بينه وبين  
الخطاب الفكري الغربي، في وقت كان يمكن فيه  
التفتيش عن مواطن للقاء تمهد للتعاقد الفكري  
وتدفع باتجاه خلق رؤى عالمية يسهم فيها الخطاب

الإسلامي المعاصر بالمشاركة مع الخطاب الآخر أياً تكن مرجعيته الفكرية.

٤- إنه ذو سمة إلغائية عند كثيرين، وذلك تأثراً بالفكر الآخر - وبالتحديد الغربي - الذي مارس ولا يزال يمارس الصفة الالغائية تجاه الآخر وخصوصاً الفكر الإسلامي ومحاولة مصادرته.

ولكن هذه السمات لم تبق على حالها، فقد تطور الخطاب الإسلامي، وأصبح أكثر نضجاً وأخذ يميل إلى تجسيد العلاقات الفكرية مع الآخر والتفتيش عن المشتركات، ونزع عنه - عموماً - جلباب الشك تجاهه كما أخذ يستعيد الثقة بنفسه وقدرته على المواجهة. كما أن اشتغالات المفكرين أخذت تميل نحو التفضيل والبحث في المسائل الحرجة وعدم الاكتفاء بالطابع العمومي.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي - ولا يزال - يعبر الخطاب الإسلامي عن نفسه وتجاه الغير والآخر، بما يحفظ له استقلاله الثقافي بما له

من مرجعية ومنظومة قيم ومفاهيم فلسفية واجتماعية وتشريعية ويحقق له التكامل الثقافي مع الآخر الثقافي في فضاء عالمي أرحب وأوسع.

ومهمة من هذا القبيل مسؤولية كبيرة ومركبة ومعقدة وتبدو عسيرة إلى درجة توجي بالفشل وتبعث على اليأس لضراوة المعركة الثقافية ولتعاكس الإرادات وتصادمها على مستويات مختلفة تلقي بظلالها على البعد الثقافي.

ولذلك ظل التساؤل حاضراً بقوة أمام زعماء الإصلاح الإسلامي: كيف يمكن أن نستفيد من الآخر؟! وما هو المفيد للآخر في حضارتنا؟! وكيف يمكن التوفيق بين منظومة القيم الإسلامية التي تؤمن بمرجعية السماء وبين الإيمان العميق بقدرات الإنسان الخلاقة؟! فكيف نحرر إنساننا؟! وهل أن تحريره يمرّ عبر التخلص من هذه المرجعية؟!

وفي سبيل خلق التحول الثقافي الذي ينشده

زعماء الاصلاح بما هو نوع من التغيير والتطور نحو الأمام والكمال بنحو مترابط وإلى حالة أكثر تعقيداً، تتجلى أبعاد الزمان والمكان كمعطيات لاختيار الأفضل.

على مستوى المعطى الزماني ثمة ثلاثة أبعاد: الماضي، بكل ما يعنيه لوعي الإنسان ولا وعيه أيضاً، من تراث وتاريخ وقيم ومفاهيم وعادات. والحاضر، بكل ما يتشكّل من واقع: من معادلات وقدرات وشروط... والمستقبل الذي يقوم من خلال ما يتطلع إليه الإنسان من رؤى واحتياجات. وعلى مستوى المعطى المكاني، ثمة طاقات ومعوّقات ومناخات إيجابية وغير إيجابية. ... وهي كلها تتظافر كمعطى يتجلى أمام المعنيين بمشهد التحول الثقافي.

وأمام زعماء الاصلاح إشكالية اختيار منهج فكري قادر على الاسترشاد بالماضي لما له من ارتباط عضوي بمفاهيم الانتماء والهوية والوجود دون أن يكون عنصراً معيقاً لفهم الحاضر والتطلع

نحو المستقبل. فإذا كانت الهوية الثقافية جزءاً من الكيان الاجتماعي للأمة وهي الملاذ الآمن لتحقيق مشروع التنمية الشاملة، فإن ذلك لا يمكن من ضرورة الارتباط الواعي بالثقافات الأخرى والتواصل مع منجزاتها المختلفة.

وثمة إشكالية أخرى تتجلى أمام ناظري زعماء الإصلاح الديني كونهم المعنيين بشؤون الدين، وذلك لجهة دور الدين في ترتيب النسيج المادي والمعنوي لثقافة المجتمع وهو دور مهم جداً، ويعدّ الدين في هذا المجال المنبع الرئيس للقيم والسنن والعادات والتقاليد، وبذلك فإن له القدرة الهائلة على صناعة المجتمع أفراداً وجماعات والتأثير عليهم على مدى الزمن.

ولكن من جهة أخرى يبدو الدين فريسة سهلة أحياناً لتأثير الاجتماع الإنساني، فإن ثقافة المجتمع قد تصبغ الثقافة المجتمعية، من المعتقدات والشعائر بل والأحكام الدينية أحياناً فتبدو نسخة عن ثقافة اجتماعية لا علاقة لها

بالدين وهو ما يعزز الدور المهم لزعماء الإصلاح الديني على مستوى المراجعة النقدية المستمرة لبعض المظاهر الدينية والشعائر بل والأحكام التي توصف بالشرعية فضلاً عن أفكارٍ تتعلق بالتاريخ الديني والاجتماع خشية أن تتوطد وتصبح جزءاً أساسياً من الدين نفسه.

## مجالات الاشتغال الفكري:

منذ مطلع القرن العشرين اهتم زعماء الإصلاح الديني بعدد من القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية والقانونية... كان أبرزها فكرة المواطنة والعلاقة بين المجتمع والدولة، وفكرة الدساتير وحقوق المواطن. وفكرة الجامعة الإسلامية وتجاوز الأزمات المذهبية والطائفية ومشاركة المرأة واستعادة دورها في المجتمعات العربية والإسلامية، وفضلاً عن إعادة النظر في مجمل القراءات والتفسيرات للنصوص الدينية.

واستمر الاشتغال الفكري على وقع التحدي الثقافي والسياسي، وعلى خلفية الشعور بمتطلبات العصر والوفاء بها، وربما اتسع ليشمل عدداً من القضايا والمسائل.

و يمكن إجمال هذه القضايا والمسائل في عدة محاور تعتبر الأهم بين عدد كبير من القضايا الملحة:

- قضايا الحكم وإدارة السلطة.
- الحريات وحقوق الإنسان.
- شؤون المرأة.
- التنمية الشاملة وعملية النهوض.
- مشروع التصالح الاجتماعي والحوار، وتجسير العلاقات مع الآخر، على المستوى الداخلي أو الخارجي، وممارسة النقد الذاتي.

## 1- قضايا الحكم وإدارة السلطة:

ثمة اهتمام واسع، ومنذ وقت بعيد في الخطاب الإسلامي بقضية الحكم ومحاولة تقديم رؤى نظرية حولها تتناسب مع التغيرات الكبيرة في هذا العالم المتحضر، ولا يزال الخطاب يبحث في مسائل تتصل بهذه القضية، مثل: الشورى، البيعة، ولاية الفقيه... وثمة عدد من المصادر

المهمة في هذا المجال.

ويمكن ملاحظة التالي على هذا الخطاب:

- بالرغم من محاولات التجديد في الخطاب الإسلامي، وبما يخص قضايا الحكم، فإن هيمنة التراث الإسلامي في هذا المجال لاتزال حاضرة وبقوة، فتجد بصمات الماوردي وابن تيمية وابن يعلى الحنبلي... حاضرة في هذا الخطاب مع أنها مجرد وجهات نظر دينية لفقهاء دينيين حاولوا تفسير النصوص في ضوء واقعهم الذي عاشوه.
- والأهم والأبرز في هذا التراث أنه ينظر إلى السلطان والحاكم أكثر مما ينظر إلى الحكم نفسه.
- لوحظ غياب مبدأ الشورى أو تراجعها في الوسط الفقهي السني على خلفية البحث في كون الشورى لازمة أو اختيارية، فيما

حلت نظرية ولاية الفقيه بقوة في الوسط الفقهي الشيعي.

- يلاحظ على الخطاب الإسلامي أنه يركز على قضية الحكم، ولكنه لا يهتم كثيراً في إدارة الحكم، وبمعنى آخر فليس هناك قواعد تفصيلية تضبط المؤسسة الحاكمة وتنظم علاقاتها، فيما بين مؤسساتها المختلفة من جهة ومع الجماعة والأفراد من جهة أخرى.
- كما يلاحظ ندرة البحث في النظم القانونية والمحددات الدستورية الواقعية لمبادئ الحكم، سواء أكانت شورى أم ولاية فقيه أو غير ذلك.

## ٢- الحريات وحقوق الإنسان:

ثمة اهتمام كبير في موضوع الحريات وحقوق الإنسان لدى الإسلاميين وهو أخذ بالاتساع، على مستوى النظرية العامة وعلى مستوى البحث في

التفاصيل. ولكن، في الوقت ذاته لا يمكن تجاهل حقيقة الاهتمام المتواضع لهذا الموضوع إذا ما تمت المقارنة مع موضوع الحريات في الفكر الغربي. وفضلاً عن ذلك، فإننا على مستوى الممارسة أبعد، ولا زالت مجتمعاتنا لا تعرف هذا الموضوع ولم تأخذ الدربة الكافية ليكون جزءاً من ثقافتها وشخصيتها. وعلى هذا المستوى يلاحظ غياب الجمعيات والمنظمات المعنية بالحريات والحقوق في مجتمعاتنا، وهو ما يذكر الحقيقة التي أشرنا إليها.

إن ديناً وشريعة تتضمن نصوصاً دينية تخلد واقعة لتبرئة يهودي في محيط مسلم هو الأولى بهذه الثقافة. يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (سورة النساء: ١١٢)

وقد نزلت الآية في تبرئة يهودي يعيش في المدينة اتهمه المسلمون بسرقة نفذها مسلم، وشهدوا عليه عند النبي (ص)، فنزلت الآية لتضمن سير عدالة القضايا وتخبر النبي (ص) وتصحح المسار،

بعيداً عن الانتماءات الدينية الضيقة، وحرصاً على العدالة ورعاية حقوق الإنسان.

### ٣- شؤون المرأة:

منذ الانطلاقة الأولى لحركة التنوير الإسلامي وضع زعماء الإصلاح الديني موضوع حقوق المرأة ودورها في المجتمع على قائمة أولوياتهم، ورفعوا سقف هذا الاهتمام. على نحو تستعيد فيه المرأة دورها في الشأن العام، فضلاً عن مراجعة أوضاعها الخاصة في المجتمع العربي الإسلامي في ضوء التقاليد التي أسهمت في إقصائها وتهميش دورها والانتقاص من حقوقها.

ويخوض الخطاب الإسلامي اليوم في مسائل حرجة عديدة تخص المرأة، ومن أهم القضايا: ولاية المرأة على القضاء، وولاية المرأة على الشأن العام (الرئاسة)... وعلى نحو تبدو فيه المسائل أكثر حضوراً، ولكن الخطاب التشريعي -عموماً - فيما يخص المرأة يبقى على حاله، لم يتغير كثيراً، مما

يستدعي المراجعة على نحو أوسع وعلى درجة عالية من الحيادية العلمية.

#### ٤- العلاقة مع الآخر الثقافي:

لقد قطع الخطاب الإسلامي شوطاً بعيداً في الاهتمام بموضوع العلاقة مع الآخر سواء أكان الآخر الثقافي على مستوى الداخل أم على مستوى الخارج، وقد أخذت مفاهيم التصالح والتسامح والحوار تتفشى بدرجة أكبر في الوسط الإسلامي وتنال اهتماماً أوسع، ولكنه كان مقتصرأ على الجانب النظري، ولم يتم تكريسه على مستوى العمل.

إن من شأن صياغة نظرية إسلامية للتعاطي مع الآخر وتأسيس علاقات تصالحية تقوم على مبدأ فكري وثقافي، إشاعة روح التعاون والقضاء على نوازع العدوانية المتبادلة، وهي نوازع تجدها حاضرة في المؤسسة الدينية والمجتمع والحركة الإسلامية، فرضتها عوامل عديدة، منها ما هو ثقافي يتصل

بالقرارات والتأويلات الدينية التي شاعت في فترة من الفترات، ومنها ما هو سياسي يتصل بالمظاهر القمعية والمناهج الاقصائية التي مارسها السلطات السياسية وغير السياسية، وإن كانت مسؤولية السلطات السياسية على درجة أكبر.

وقد لا يكون الاهتمام بهذه المسائل كبيراً جداً، إلا أنه ملحوظ ويحتاج إلى مضاعفة الجهود العلمية فضلاً عن خلق مناخ قادر على صناعة مزاج معتدل تجاه الآخر.

#### ٥- التنمية الشاملة:

ولعلّ من أهم القضايا الحديثة التي تدخل قاموس الخطاب الإسلامي هي قضية التنمية بأبعادها المتعددة: الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبشرية...

وقد نبّه المفكرون الإسلاميون - وفي مقدمتهم السيد محمد باقر الصدر - على ضرورة أن تنطلق

التنمية الاجتماعية من خلال المناخ الثقافي والعقائدي للأمة، وأن لا تتجاهل رصيدها التراثي الضخم، لئلا تكون مجرد عملية شكلية فارغة، تعتمد على استيراد رؤى وأفكار وتطبيقات لا تتفاعل معها الأزمة.

ولكن في الوقت نفسه، لا يمكن النهوض بمشروع تنموي في البلاد العربية والإسلامية ما لم يتم تغيير عدد من الرؤى والمعتقدات الشعبية التي اكتسبت طابعاً دينياً مقدساً، وأريد لها أن تكون جزءاً من الهوية الثقافية للمجتمع.

وبمعنى آخر يمكن القول: إن عملية التنمية تستلزم إعادة النظر في عدد من المعتقدات والأفكار الشائعة في ضوء الثوابت الدينية نفسها والإبقاء على ما هو أصيل وثابت.

لقد غابت رؤى إسلامية أصيلة من الحياة اليومية في مجتمعاتنا من أهمها:

١- النظرة المستقبلية للحياة والتخطيط لها.

- ٢- الإيمان بمبدأ التغيير وكونه مسؤولية البشر وأفراداً وجماعات.
- ٣- النظرة الإيجابية للحياة وأنها ليست مرحلة عابرة، بل هي جزء من المخطط الإلهي للخلق والإيجاد، واعتبار العمل جزءاً من مسؤولية الإنسان في إعمار الأرض.
- ٤- الإيمان بالشريعة والقانون سقفاً للجميع واحترام أحكامهما على نحوٍ شامل ومطلق، من دون النظر إلى الفوارق والامتيازات.
- ٥- الاعتقاد بمبدأ التساوي بين البشر وأنه لا سلطة لأحد منهم على أحد إلا بالقانون. وأنه لا يجوز الظلم بأي نحو من الأنحاء، بل وعدم تبريره دينياً، ووفق قراءات تعسفية وعنصرية.
- ٦- عدم المبالغة بالقراءات الدينية واعتبارها جزءاً من الدين نفسه. وفي وقتٍ تبدو فيه القراءات والتفسيرات الدينية مجرد

وجهات نظر لا يجب فرضها على غيرها من القراءات والتفسيرات، واتخاذ طريق الإقناع والتواصي بالحق سبيلاً لبناء المجتمع.

إن عملية التنمية الشاملة ستبقى مجرد حلمٍ ما لم تتظافر المعطيات البشرية والتاريخية والعقائدية.. لتدعيم مشروع من هذا القبيل.

ولعلّ أهم ما يُطالب به الخطاب الإسلامي لتجاوز محنته والنجاح في النهوض بمشروع تنموي شامل هو الخروج من عموميته ومثاليته وطوبائيته، من خلال فهمٍ واقعي للحياة وطبيعتها وحركة التاريخ أيضاً، كونها الرافد المستمر في بناء تصورات العقل الإسلامي. ■